مخطوطة عبث الوليد

تأليف أبي العلاء المعري

أو دراسات لغوية وأدبية
حول طائفة من أشعار البحتري
وهي التي بحثها ابو العلاء المعري
في كتابه الذي سماه « عبث
الوليد »

تمهيد

في سنة ١٩٣٢ م وُكِلَ إليّ تدريس أشعار البحتري للصف المنتهي في « مدرسة الآداب العليا » بدمشق . فبحثتُ عن مخطوطاتٍ وشروح لديوان البحتري في دور الكتب العامة والخاصة فلم أظفر إلا بنسختيه المطبوعتين : نسخة الجوائب المطبوعة في الاستانة ونسخة بيروت التي طُبعت عن نسخة الاستانة .

وقد وصفوا شعر البحتري بالسهولة والانسجام وقرب تناول الاغراض الشعرية . وربما صدق قولهم هذا في أشعاره الغزلية والوصفية أما مجموع قصائده ذات الاغراض

المختلفة كالهجو مثلا فيصعب شرحها واستخراج معنى صحيح لها ما لم يقف شارحها على تراجم الرجال الذين قيلت فيهم تلك القصائد وعلى الاخبار والوقائع التي حملت البحتري على قول ما قال فيهم . وقد انقطعت صلة هذه الوقائع بنا . وغابت تفاصيل أخبارها عنا . اللهم الا ما يظفر به المرء عرضاً في ثنايا كتب الاخبار والأدب التي تصف شعر البحتري . وتوازن بينه . وبين غيره . أما الشروح والتعاليق التي تخدم بها الدواوين عادة فلم يُرزق البحتري حظاً منها لا هو ولا أبو تمام كما رُزق ثالثهما المتنبي . ومن الغريب أن النسخة الأصلية التي طُبعت عنها نسختا الاستانة وبيروت قلّما يذكر في طُرّر قصائدها وعنوانات أشعارها موجز من السبب التي قيلت فيه تلك القصائد والاشعار . كما نرى هذه التعاليق في طرر الكثير من قصائد المتنبي سوى قول الناسخ (وقال البحتري يمدح فلاناً ويهجو فلانا) حتى اذا تبطن القارىء القصيدة وجد خلالها إشارات الى حوادث ووقائع كانت هي السبب في المدح أو الهجو او غيرهما من أغراض الشعر بحيث لا يمكن فهم الكثير من شعر البحتري على حقيقته وتقويم ما فيه من تحريف أو تصحيف ما لم تعرف تلك الحوادث على وجهها : مثال ذلك قصيدته في مدح المعتز (صفحة ١٣٧ من طبعة بيروت) ومطلعها : (بعينك لوعة القلب الرهين) وجاء فيها : (فرار الكوكبي الخ خمسة أبيات أو ستة لا تُفهم ما لم ينقب عنها في كتب التاريخ والأدب وقد اقتصرت النسخة على قولها (وقال يمدحه)

فدارس ديوان البحتري ومريد التعمق في تفهم أغراضه وتحليل شاعريته تراه يخمن في فهم أبيات جمة من شعره تخميناً يُصيب معه تارة ويخطىء تارات .

وهكذا كان شأني وأنا أحاول شرح أشعار البحتري وعقد دراسات عليها . عدا الصعوبة التي كنت ألاقيها في تقويم اعوجاج التحريف والغلط الناشىء عن نسخ النسخة الأصلية التي وقع الطبع عليها ثم الناشىء عن رداءة طبعها في مطبعتي الاستانة وبيروت والحاصل انه لم يكن لديّ إلا نسختان مطبوعتان بل نسخة واحدة في الحقيقة لاشرح عليها ولا تعليق إلا تعليقاً على احداهما يحتاج الى تعليق .

وكنا نعرف من قبل أن لأبي العلاء المعري شاعرنا العربي الحكيم كتاباً اسمه (عبث الوليد) . وكنا نتخيله شرحاً لجميع قصائد ديوان البحتري . ثم علمنا أن

منه نسخةً في دار الكتب المصرية، فطلبنا صورتها الشمسية من صديقنا الاستاذ (اسعد طلس زاده) مدير تلك الدار على أمل الاستعانة بها في ما نحن بصدده من شرح ديوان البحتري . فأرسلها الينا من فوره . كما هو شأنه في كل ما يعود الى نشر العلم .

مخطوطة «عبث الوليد» هذه هي موضوع دراستنا اللغوية والادبية التي سننشرها تترى في مجلة مجمعنا العلمي . وعهدنا بأبي العلاء أنه فيلسوف اجتماعي توسل الى نشر فلسفته بواسطة شعره في اللزوميات . ونثره في رسالة الغفران وغيرهما من آثاره المطبوعة وهي قليلة في جنب ما لم يطبع منها .

هذه الفكرة هي التي غمرتنا من ناحية فضل أبي العلاء ومظاهر عبقريته . وقد غطت شهرته فيها على كل شهرة له سواها . أما ناحيته الأخرى التي يتقدم إلينا بها استاذاً في النحو والتصريف وقواعد العربية والاستشهاد لها من شعر العرب فهذا لم تتوسع في معرفته من علم أبي العلاء . ولم ينتشر بيننا من آثاره المطبوعة ما يدلّ عليه . اللهم الا رسالته (الملائكة) التي تكلم فيها على اشتقاق لفظ الملائكة وتصريفه . والا نقدات خفيفة تخللت رسالته (الغفران) غمز بها بعض شعراء العرب الذين خالفوا قواعد اللغة ، ومرقوا من طاعتها . وكان في نقداته هذه مطايباً مفاكهاً أكثر منه معلماً مدرّباً . فلم تكن تلك النقدات لتشفي غليلاً كما شفى غليلنا مخطوط «عبث الوليد» الذي رأينا أبا العلاء فيه استاذاً جاداً في العربيّة وقواعدها . كما عرفناه في لزومياته استاذاً جاداً في الفلسفة ومذاهبها . وكنا نحسب كتاب (عبث الوليد) تفسيراً لشعر البحتري كما قلنا آنفاً حتى سمعنا ابن خلكان يقول : إن أبا العلاء اختصر ديوان البحتري وسماه (عبث الوليد) ، كما اختصر ديوان أبي تمام وسماه (ذكرى حبيب) ، وديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) . والمتبادر إلى الذهن أن مراد المعري بالوليد أبو عبادة البحتري نفسه ليقابل اسمه اسمي زميليه (أبي تمام) و (ابي الطيب) . ولكن قوله في تسميته (عبث) فيه ازراء للبحتري بخلاف قوله (معجز احمد) و (ذكرى حبيب) فليس فيهما ما يشعر بالغمز . فكيف هذا ؟

ثم إن ابن خلكان عاد فوصف الكتب الثلاثة المذكورة بقوله : « تكلم (أي أبو العلاء) على غريب أشعارهم ومعانيها . ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم . وتولى

الاختصار لهم . والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أماكن لخطئهم اه »

وفي قول ابن خلكان شيء من تناقض : لأنه قال أولاً ان ابا العلاء اختصر ديوان البحتري وسماه (عبث الوليد) فعبث الوليد إذن مجموعة مختارة من أشعار البحتري . ثم قال إنه (تكلم على غريب اشعارهم الخ) اي اشعار الثلاثة ومنهم (البحتري) . فهذا يدل على أن (عبث الوليد) شرح الاختصار . فهل يقال : إن ابن خلكان في قوله الأخير ذكر الثلاثة وأراد ابا تمام والمتنبيء وحدهما ولم يرد البحتري : لأن عبث الوليد لا ينطبق عليه تمام الوصف الذي قاله في الثلاثة ؟ أو يقال : إن ابن خلكان سمع بكتاب (عبث الوليد) ولم يره ؟

أما حقيقة هذا الكتاب (عبث الوليد) فنستخرجها مما قاله مؤلفه ابو العلاء في مقدمته وهذا هو :

« أثبت ما في ديوان البحتري مما أصلح من الغلط الذي وُجد في النسخة المكتوب في آخرها انها بخط ظفر بن عبد الله العجلي وإنما أثبت ذلك ليكون مولاي الشيخ الجليل أدام الله عزه كأنه حاضر للقراءة . ولم يمكن اثبات جميع الأغلاط لأنها اكثرها غير مخيل اه »

فيفهم من هذا ان بعض جلة الرؤساء من معارف أبي العلاء كان عنده نسخة من ديوان البحتري بخط ظفر العجلي فيها اغلاط استعصى تقويمها على ذلك الرئيس الجليل فأرسلها إلى ابي العلاء ليقوم من أودها واعوجاج اوزانها ففعل . ولا نعلم إن كان أبو العلاء كتب تلك التعليقات في كتاب مستقل أوانه علقها على هامش النسخة وأعادها الى صاحبها فجاء من جرّدها في كتاب . وكيفما كان الحال فقد سمى ابو العلاء هذه التعليقات (عبث الوليد)

وكما شكونا آنفاً تحريف نسخ اشعار البحتري التي بين أيدينا شكا ابو العلاء أغلاط النسخة التي كتبها (ظفر العجلي) وأرسلها اليه المولى الجليل .

وقد كان ظفر يخطيء في اعتبار رويّ الأبيات : فيضع القصائد في غير مواضعها . فناقشه (المعري) في ذلك كما ناقشه في كثير مما خطه قلمه خطأً أو سهواً .

وها أنا ذا اليوم أعود فأشكو نسخة عبث الوليد نفسها التي جاءتنا من مصر والتي

ألفها ابو العلاء لتصحيح أغلاط شعر البحتري فكانت مجموعة أسقاط ، وقراءة أغلاط . وهذا يؤيد قول من قال — ومنهم المحققون من المستشرقين — إنه لا يمكن أن يكون لنا معشر العرب أدب جديد ما دامت نصوص أدبنا القديم على حالتها الحاضرة من الاضطراب والتحريف وقلة وسائل الضبط والتحقيق .

ونستشهد على ذلك بما قرأناه في مجلة (الحديث) الحلبية وهي اشهر صحيفة قامت بنصرة الادب الحديث والدعاية اليه :

لقد كتب أديب فاضل وصفوه بانه أحد أعلام المدرسة الحديثة مقالاً في تلك المجلة (سنة ٧ ص ١٦) قال فيه — مخاطباً قارئ مقاله — ما نصه :

« إقرأ الأبيات الآتية في وصف الربيع ورددها بصوت مرتفع ثم أغمض عينيك وضع أصابعك في أذنيك . وأنا زعيم لك بأنك متسمع ألحاناً شجية غنية بأنغامها الغريبة المتعددة . وتبصر الوانا تزدهر وتزدهر . قال : وهذه هي الابيات :

سرونا على بطياس وهي كأنها	سبائب عصب او زرابي عبقر
كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى	إليها — سقوط اللؤلؤ المتحدر
وفي أرجواني من النور أحمر	يشاب بإفرند من الروض أخضر
اذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلت	أعاليه من درّ نثير وجوهر
اذا قابلته الشمس رد ضياءها	عليها صقال الأقحوان المنوّر
اذا عطفته الريح قلت التفاتة	لعَلْوَةَ في جاديها المتعصفر

وقد جعل عنوان المقال هكذا (طريقة جديدة في دراسة الادب العربي : الألوان والموسيقى والحياة في شعر البحتري) فأنت ترى من عنوان المقال — ومن التوطئة التي قالها كاتبه لهذه الابيات — ومن كون صاحب المقال من اعلام المبشرين بالادب الجديد — وصاحب المجلة التي كتب فيها المقال حامل راية الادب الجديد ايضاً — وهو من مدينة حلب — وقائل الشعر أعني (البحتري) حلبي منبجي — و(بطياس) قرية من قرى حلب — انت ترى من كل هذا انه كان يجب ان يعنى بتحقيق معنى هذه الابيات من نصوص الأدب القديم ليستحكم بناء الادب الجديد عليها . لكن كاتب المقال الفاضل اطمأن الى هذا القدر اليسير الذي رآه من الشرح والتعليق على

الابيات المذكورة في النسخة البيروتية المطبوعة في المطبعة الأدبية (سنة ١٩١١ م) وهو قد يكون معذوراً في ذلك : إذ انه لم يظفر من تفسير معنى الابيات الا بقول شارح النسخة البيروتية تعليقاً على الأبيات الاول من تلك الأبيات وهوهذا : (سبائب ذوائب . العَصْب نوع من الشجر . الزرابي من النبت ما احمر او اصفر وفيه خضرة . عبقر موضع تزعم العرب انه كثير الجن ثم نسب اليه كل ما يتعجب من جودة صنعته اه)

فيكون معنى هذا النص الشعري القديم بمقتضى تفسير الشارح المذكور : « إننا مررنا على قرية بطياس وكأن أرضها ذوائب شجر العصب او كأنها النبت المحمر والمصفر والمخضر من ارض عبقر » ولا معنى لتشبيه الأرض بالذوائب ولا بالنبت المحمرّ وإنما المعنى هكذا :

« مررنا بقرية بطياس وكأن ارضها مفروشة بشُقَق الكتان الملوّن من صُنع اليمن او ببسط ملوّنة غريبة الشكل يشبه ان تكون من صنع جنّ عبقر »

فشعر البحتري من النصوص القديمة التي كان يجب — بسبب ولع الناس بحفظها والترنم بها — ان يبذل الجهد في تحقيق الفاظها وتفسير معانيها كي يساعد ذلك انصار الادب الجديد على بناء ادبهم عليها . فالأديب كاتب المقال أعجب بهذه الابيات الستة من شعر البحتري وتغنى بجمالها . وتفنن في وصفها . وهو لم يصل اليه من تفسير الفاظها وبيان معناها إلا هذا القدر التافه . فكيف تراه يكون فاعلاً لو وصل اليه تفسيرها ومعناها كما اراد البحتري قائلها .

هذا مثال واقعي يصف لنا مقدار تقصيرنا في خدمة أدبنا القديم وتحقيق نصوصه حتى أدى ذلك إلى ضعف نهضة الادب الجديد وبطء ازدهاره . وحتى عيّرنا الشعوبيون من دعاة الادب الجديد بانه لا ادب لنا قديم ينتفع به او يعول عليه .

ومخطوطة عبث الوليد المرسلة صورتها الشمسية الينا صغيرة الحجم فهي في نحو (١٧٠) صفحة مكتوبة بخط فارسي جميل وحرف مشرق واضح . وفي آخرها ما نصه : (تمّ الاملاء المعروف بعبث الوليد وهذه السمة موقوفة بين امرين : (احدهما) ان يراد عبث الوليد الذي هو البحتري و (الآخر) ان يعنى الوليد الذي هو الصبي .

وكون الرجل مسمى بالوليد يحتمل هذه التسمية وبالله التوفيق . تمّ بحمد الله على يد فتح الله القمولي البخاري في تسعة شعبان سنة الف ومائتين وسبع وتسعين في المدينة المنورة في المدرسة المحمودية اه)

ويظهر ان هذه الخاتمة من عند قوله (تم الاملاء الخ) من كلام القمولي البخاري كاتب النسخة اوغيره من النساخ الأعاجم لأن العبارة غامضة ولا سيما قوله (والآخر أن يعني الوليد الخ) ولا يخفى أن كاتب هذه العبارة إنما أراد تعليل تسمية أبي العلاء لكتابه بعبث الوليد . فكيف يسميه بذلك والعبث بسكون الباء بمعنى الخلط . وبفتحها بمعنى الهزل واللعب . فأبو العلاء في كتابه يكشف لنا عن خلط الوليد أو عن هزله . فمن يكون هذا الوليد يا ترى ؟ هل أريد به البحتري ؟ وعندي أنه هو سبف راجح الظن لأن الوليد اسمه . ولأنّ الأشعار المصححة اشعاره . ولأن أبا العلاء في تأليفه هذا الكتاب إنما اراد غالباً أن يشرك (البحتري) في وضع تصنيف فيه كما وضع تصنيفين آخرين في زميليه (ذكرى حبيب) في أبي تمام و(معجز أحمد) في أبي الطيب . لكنه لعمري لم يسوّ بينهما وبينه مذ مدحهما وذمه معرّضاً بخلطه أو هزله . والخلط او الهزل ليس منه . وإنما هو من ناسخي اشعاره أو من الناسخ (ظفر بن عبد الله العجلي) فهو العابث الهازل . أو المخالط الذاهل . وبهذا الاعتبار يكون ابو العلاء في تسميته كتابه (عبث الوليد) إنما أراد أن يعيب ناسخ اشعار البحتري وان هذا الناسخ كالوليد اي صبيّ الكتاب : يرمج ويخالط . أو يهزل ويلعب في ما يكتبه وينسخه .

ومهما يكن من أمر المراد بالوليد هذا أي سواء قلنا إن المراد به البحتري وهو الراجح أو (ظفر العجلي) ناسخ أشعاره فانه لا يقع الاتساق على ما يظهر بين تسمية هذا الكتاب بعبث الوليد وبين تسمية الكتابين الآخرين بذكرى حبيب ومعجز احمد ففي الأول تعيير وتسفيه ، وفي الآخرين تقريظ وتنويه ، ولا سيما اذا كان ابو العلاء قد أراد بالوليد البحتري نفسه وأراد بخلطه أو لعبه وهزله ما جاء في شعره من الاغلاط اللغوية ، والضرورات العروضية ، والخروج عن قواعد العربية — إذا اراد شيخنا ابو

العلاء هذا يكون قد ضرب البحتري في الصميم ولم ينصفه كما أنصف رفيقيه (أباتمام) و (ابا الطيب)

وقد استحسن صديقنا الاستاذ خليل بك مردم أن يكون ابو العلاء عنى نفسه بقوله (الوليد) ويكون قد قال ذلك عن نفسه تواضعاً كما هي عادة كثير من المؤلفين

ثم لفت الصديق نظري إلى ما قاله الدكتور (طه حسين) في كتابه (ذكرى ابي العلاء) من وصف ذوق ابي العلاء الرقيق ومزاجه المعتدل في تسميته الكتب الثلاثة بهذه الأسماء !! لكن الدكتور لم يوضح لنا وجه ذوق المعري في تسميته (عبث الوليد) الابقوله : ولأبي العلاء في آخره (يعني في آخر كتاب عبث الوليد) تأويل ظريف في اسم الكتاب فانه قال : (أما العبث فظاهر وأما الوليد فيجوز أن يراد به البحتري نفسه لأنه اسمه ويجوز أن يراد به الناسخ لأنه عبث بالكتاب اه) ونلاحظ على الدكتور أنه جعل الجملة الواردة في آخر المخطوطة وهي قوله (تم الأملاء المعروف بعبث الوليد الخ جعلها من مقول ابي العلاء والمؤلف لايقول عادة (تم الاملاء المعروف الخ) ولكي يروج الدكتور رأيه فقد لخص الجملة ولم يذكرها بنصها كما ذكرها آنفاً . ولا نظن الدكتور قد نقل الجملة الا عن مخطوطة دار الكتب المصرية التي وصلت الينا صورتها الشمسية . فالجملة في أغلب الظن من مقول بعض نساخ الكتاب لا من مقول ابي العلاء . ثم لو ثبت ان الجملة من مقول أبي العلاء لما كانت بالتي تدل على توجيه تسمية الكتاب توجيهاً يدل على اعتدال مزاج أبي العلاء أو ذوقه الرقيق كما قال الدكتور الفاضل بل الأمر على العكس : فان ابا العلاء سمى لنا كتابه باسم مشتبه غامض وهو فيه إما ان يكون شاتماً للبحتري أو لناسخ أشعاره ، ولا نرى في هذا ذوقاً ولا اعتدال مزاج بالنسبة الى ذوقه واعتدال مزاجه في تسميته الكتابين الآخرين : ذكرى حبيب ومعجز احمد .

ومهما لحنا التحريف والتصحيف والخطأ في مخطوطة (عبث الوليد) التي وصلت الينا فاننا لمحنا من جهة ثانية سهولة عبارة المعري وتشقيقه القول في إيراد المسائل وبسطها كما يفعل أساتذة التعليم في بسط عباراتهم للطلاب فليس فيها إيجاز ولا إدماج ولا غموض ولا تعمية كما وقع منه في (رسالة الغفران) والفرق ظاهر : فإنه في (رسالة

الغفران) كان يحذر لغط اللاغطين ويخشى صولة الحشويين والجلجلوتيين • وليس الشأن كذلك في (عبث الوليد)

طالعت كتاب « عبث الوليد » بوم وصوله فحرثته حرثا وقتلته بحثا • واستخرجت منه فوائد لغوية وأدبية هي التي اثرها بين يدي القراء في هذه المقالات •

وديوان البحتري المطبوع يشتمل على نحو (١٢٠٠٠) بيت من الشعر وفي كتاب (عبث الوليد) إشارة الى (٢٥٠) قصيدة تكلم أبو العلاء على (٤٠٠) بيت منها • وقد أشار الى ستين قصيدة لم تر لها أثراً في الديوان المطبوع • فاذا أضفنا أبيات هذه الستين قصيدة إلى ابيات الديوان المطبوع بلغ مجموع أبيات شعر البحتري (١٥٠٠٠) بيت من الشعر على وجه التقريب • ويكون ابو العلاء في كتاب (عبث الوليد) إنما تكلم منها على (٤٠٠) بيت فقط أي على جزء من (٣٨) جزءاً • فأين تكون هذه القصائد الستون التي أشار اليها ابو العلاء إلا أن تكون في مخطوطات دواوين البحتري الأخرى التي لم تصل الينا • ومنها نسخة جمعها علي ابن حمزة الاصفهاني ورتبها على الأنواع أي المقاصد والمعاني لا على حروف المجاء حسب ترتيب أبي بكر الصولي لها • ولعل نسخة الصولي هي التي عثر عليها في مكاتب الاستانة وطبعت في مطبعة الجوائب • ثم طبعت عنها نسخة ببيروت ، ونسخة الاستانة هذه مأخوذة عن نسخة قديمة كتبت (سنة ٤٢٤ هـ) بخط علي بن عبيد الله الشيرازي في مدينة تبريز •

ولعلنا بعد نشر دراستنا هذه في المجلة نعمد إلى القصائد الستين التي لم توجد في النسخة المطبوعة فننظم بها قائمة ، ونشير إلى بيت المطلع من كل قصيدة منها •

المغربي